

على هامش أمموم شهرزاد

٣ - قضية اليوم (القصر المسحور) للاستاذ دريني خشبة

قالت فانتة : « رأيت إذن كيف مسح صاحب (شهرزاد) تلك الصورة العلوية الفردوسية التي رسمها الكاتب المبقرى الأول للمرأة الكاملة التي طيبت لشهريار وعالجت اعوجاجه ؟ وهل رأيت كيف أسلم جميع أبطاله للشيطان ، فليس فيهم بطل رشيد ؟ فشهرزاد شهوانية مخدعة هلوك ... وقر يفتن بجسدها البض ويراها في صورة إيزيس وعيشتي بيدبا الفيلسوف الهندي ... ثم يقتل نفسه من أجل أنه رآها مخدعة عند ما شهد العبد يخرج من غيبته في مخدعها ... وشهريار ينسى خولته بل يتبدل بها فسولة عند ما يضبط العبد نفسه في مخدعه فلا يشور ولا يتسخط ولا يفور دمه في رأسه ، ولا يأمر برأس العبد ورأس شهرزاد ، ولا تعود إليه جبلته القديمة المغرمة بسفك الدماء ... ولماذا تعود تلك الجبلية وقد كلت حيلته في المرأة عامة ، لأن المأساة بعينها تتجدد ، ودورة الفلك تبدأ من حيث تعود ، وتعود من حيث تبدأ ... ثم هذا هو الجلال يبيع سيفه أو يرهنه ... وأبو ميسور يهذى من كثرة ما دخن القنب ... والعبد يتسور الجدار إلى شهرزاد في لحة الليل فلا تشبع منه ولا تريد أن تشبع منه ... فهل رأيت بلاء في قصة كهذا البلاء ؟ وهل اجتمعت لقصة عصبة من الأبطال المناكيد كهذه العصبة من الأبطال المناكيد ؟ وهل يكفي في الاعتذار عن هذا أن يعترف المؤلف في (القصر المسحور) بقصوره ، والتسليم بأنه في حاجة إلى أن يسي وبطيل السي ، وإلى أن يجد ويعمن في الجدل ، لا ليبلغ الكمال ، بل ليدنو منه ؟ وهل يكفي أن يعترف بيمد الأمد أمامه حتى يصل إلى ترقية فنه وتجديده واصطناع الأمانة والدقة والإتقان في التصوير والتعبير جميعاً ؟ ... هل يكفي أن يعترف مؤلف شهرزاد بكل ذلك ليكون بمنجاة من النقد الذي يزيغ أدبه مهما اعتذر له عميد الأدب العربي وشريكه في القصر المسحور ، ومهما دافع عنه بوصف كونه أديباً له أن يبرز أبطاله في الصورة التي

يراها ، ومهما اعتذر له بوجوب حرية الرأي والدفاع عن حرية الرأي وتقديس حرية الرأي ؟ على أن عميد الأدب قد احتاط للأمر ، فلم يرسل هذا القول على عواهنه ، بل كان حصيفاً حين قال في القصر المسحور (ص ١٧) على لسان شهرزاد : « هو إذن هنا هذا الآثم !! ليملن كيف تكون الكتابة عن شهرزاد » وحين قال علي لسانها أيضاً (ص ٢١) : « وسيجد عندي علم ما لم يعلم من أمر شهرزاد » وحين قال علي لسانها ولسان غيرها من أبطال مسرحيته ص ٥٧ : « ... كيف أعفو عن هذا الذي أتحنى فيما لا ترضى امرأة حقيرة أن تُتهم فيه ، فكيف بملكه كريمة مثلي متسلطة على القلوب خالدة على الأزمان . وقر يقسم ما أضمر لليكه غدرًا ولا أدار في خلده شيئاً يستحق أن يظهره . والعبد - وويل لصاحبك من العبد - إنه نازق ، إنه مرغ مزيد . إنه مبرق مرعد . إنه يريد أن يمزق صاحبك بأنيابه وأظافره . إنه لا يطيق التفكير في هذا الرجل الذي جعله صورة بشعة لأبشع ما يتسلط على العقول والأبدان ، وهو يغري ويحرضني ، ويريد أن يضرم النار في قلبي ، لولا أن قلبي أهدأ من أن تضطرم فيه النار . وهو يسألني كيف أترك الحياة لرجل صورني في هذه الضمة ، وجعلني أهبط من أعلى عليين لأكلف بهذا المخلوق البشع الذي ... والساحر يقسم ما سحر ، والجلاد يقسم ما باع السيف لينفق ليلة هنية ، وأبو ميسور يقسم ما أظلت حانته إنمًا قط ... حتى زاهدة تقسم ما عرفت سرًا ولا سأت عنه ولا باحت به ولا اتخذت وسيلة إلى معرفته ... فكل هؤلاء مغيظ محنق يلح علي في أن أنتقم له ، وأنتقم لنفسي من صديقك البائس المسكين ... ومع أي كنت ضيقة به ساخطة عليه حين قرأت كتابه ... الخ »

أرأيت إذن يا صاحبي كيف كان عميد الأدب العربي حاذقاً أشد الحذق حينما احتاط لنفسه وهو يدفع مسخط الناقلين على مؤلف (شهرزاد) ، فراح يبعث الطمأنينة على شهرزاد في نفوسهم ويهدم برد شرف هذه الفتاة ، وذلك بما قاله على لسانها في الصفحة السابعة عشرة والصفحة الحادية والعشرين والصفحة السابعة والخمسين من القصر المسحور ... « ليملن كيف تكون الكتابة عن شهرزاد ! » . وسيجد عندي علم ما لم يعلم من أمر شهرزاد ! « إى والله ؟ ... ليملن كيف تكون الكتابة عن شهرزاد . وقد برأ عميد بما أكد .. فكتب أحلام شهرزاد ،

توفيقاً يُنطق بنفسه شهرياراً ليُشكو مما افترى عليه وزور ، حينما جعله ديوتا - وابحث أنت في المعاجم عن معناها لأن الرسالة أظهر من أن تحمل إليك معناها - وتوفيق مصمم على أن يظل شهريار ديوتا مهما نار ، فهو يداعبه أمام القاضي بقوله إنه أخطأ إذ لم يجعله قاتلاً سفاكاً ، ولو كان القتل في سبيل الشرف الرفيع الذي لا يسلم ... حتى يراق على جوانبه الدم ... في رأى التنبي ورأى شهريار

قالت قاتنة : فهاذا عملاً يديك من مذهب هذا الرجل إن أنت جمعت ما كتب في « شهرياد » إلى ما كتب في « القصر المسحور » ؟ إطمئن ، فإنك تتأني أن تخلصها بشيء ... وكيف تخلصها بما بصر عليه من هذا الحنث العظيم ، والإصر الذي ليس وراءه إصر ، مما يذمه في الناس أنه مذهبه ، وأنه معتقده ، في شهرياد التي يرض بها للمرأة في كل زمان ومكان ... ومن هنا هذه المباحاة الطويلة العريضة بأنه عدو المرأة الذي لا يعترف لها بفاف ، ولا يأبه أن يُدال لها عرض ، لأنها ليس لها عرض ؛ والذي يفترض فيها الأنانية المطلقة لأنها لا تفكر إلا في خلاصها ولا يهنيها أن تهلك نساء العالمين مادامت مستطيعه أن تكون بمنجاة من الهلاك ، والتي تخال وتخدع وتُحمل بينها مأوى للعبيد الفتاك الذين لا تشبع منهم ولا تريد أن تشبع منهم ، وتؤثر أن يكون عبدها خبيثاً غليظاً خشناً وشيئاً لأن هذه كلها مزايا تصاعف - في رأى السيد توفيق - من شهوة شهرياد كما تصاعف من التنازها .

لن يكتب هؤلاء الناس ؟ ! وفي أي بلد يكتبون ؟ ! وما هي حرية الرأي هذه التي يحض عليها عميد الأدب العربي لحاية هذا اللون الوضيع من ألوان الأدب والتي غلا في الحض عليها والحاسة لها في الصحيفة الثانية والسبعين والصحيفة السابعة بعد الثلاثين من القصر المسحور ؟ ! هذا كثير ... هذا كثير جداً مهما احتفظ العميد لمن شاء أن يتقد هذا الضرب من ضروب الأدب أو ذاك ... وما جدوى النقد بعد أن يتمكن « سل » هذا الأدب من صدور قرائه ؟ ! وإذا كان عميد الأدب العربي قد أحس هذا الخطر وبه إليه فكيف كان يرى - وأظنه ما زال يرى - أن النقد الأدبي كاف لتزييف هذا اللون المهلك من ألوان الأدب ، الذي إذا قدر له أن ينتشر في بلد - أتى على أخلاق أهله وعرضه

التي يجد فيها صاحب علم ما لم يعلم من أمر شهرياد ... ولكن لهذا الحديث حينه ، نخذ في حديث القصر المسحور

ولكن ماذا في القصر المسحور من أقوال صاحب « شهرياد » التي تؤكد رأيه في هذه الفتاة التي ظلمها ، وفي أبطالها الذين ظلمهم كما ظلمها ، والتي تؤكد آراءه الريبة في المرأة خاصة ، وفي الناس بوجه عام ؟ ! إقرأ إذن في الصحيفة الحادية عشرة بعد المائة هذا الجزء من الحوار مكتوباً بقلمه :

توفيق - دخلنا منطقة الكلام الفارغ الذي لا تحذقه غير المرأة

طه - (صائحاً) : استغفر الله ! استغفر الله !

شهرياد - (لطه) دعه ! فإن عداوته للمرأة سوف تكلفه ما لا يطيق .

ثم ارجع إلى هذا الحوار لتسمع توفيقاً يقول : « إنه من فصيلة لا تنرد إلا فوق أطلال نعمة ذاهبة وآثار هباء ضائع » وإقرأ بعد هذا في الصحيفة الثالثة والسبعين بعد المائة :

القاضي - ما أقوالك ؟

شهريار - أقوالى : أن هذا التهم قد قذفني بالباطل وافترى على كذباً وزوراً واقعة لم تكن . فلقد جعلني ديوتا ، أدخل على شهرياد فأجد عندها العبد فلا أقتله ولا أشرب من دمه ! توفيق - (مهتاجاً) كنت تريد أن أجعل منك قاتلاً سفاكاً يشرب الدماء ؟ نعم ، لقد أذنبت وأجرت وأساءت إليك ، إذ لم أجعلك كما كنت تريد مخلوقاً سخيفاً !

ثم اقرأ في الصحيفة التي تليها هذا الحوار :

قر - (وقد سأله القاضي عن أقواله) أقوالى يا سيدي القاضي : أن هذا التهم قد قذفني وحط من قدرى ، فلقد جعلني أقتل نفسى من أجل امرأة ، في الوقت الذي يخرج فيه العبد من مخدعها وينكشف لي إنعها ودنسها .

وبعد ... قال الكلام الفارغ (في نظر توفيق) لا تحذقه غير المرأة ... وعداوة توفيق للمرأة ستكلفه (باعتراقه) ما لا يطيق ... وتوفيق لا يحسن التفريد إلا فوق أطلال نعمة ذاهبة وآثار هباء ضائع ... أى أنه رحل مظلم الطبع ذو مزاج سوداوى حالك متقبض متشائم ... ومن هنا عداوته للمرأة وقلة ثقته بها ... ومن هنا تجريحه لتلك الصورة التي افتن في خلقها لشهرياد الخالدة الكاتب المستعري الأول القديم الخالد ... ثم إن

للالتهلاك والاضمحلال . نحن هنا لا نقسو على أحد ، فصر أعز علينا من ألف كاتب ، وهي في عصر الحديد والنار ، في حاجة إلى أخلاق الحديد والنار ، لا إلى الأخلاق المائعة الرخوة التي شاعت قبل الحرب الحاضرة في أوروبا نتيجة للأدب المائع الرخو الذي سم به الأدباء المنحطون أخلاق ذويهم فسمموا به كل شيء ، وقضوا به على كل شيء . ونخشى أن تظن طائفة من القراء أننا نقصد إلى السب أو إلى ما يشبه السب حينما نذكر الأدباء المنحطين - كلا - ليس إلى السب قصدنا - ولكننا نخلصون جد مخلصين في إشفاقنا من أن يشبع الانحطاط في أدبنا الفاض الحديث - والانحطاط مذهب من المذاهب الأدبية التي شاعت في أوروبا بعد الحرب المظلم ، فقصفت بأخلاقيها وبدينها ، ونشرت في ممالكها روح الرخا والطراوة والاستهتار . ومن الإملال ضرب الأمثال فما تزال فرنسا بمأساتها الخلقية الدامية تنكأ القلوب لوعة عليها وأسى . وفرنسا هي البلد الذي كان يطلق الحرية الرأي العنان ؛ فكان أحد الأدباء المنحطين إذا ضاقت به أرض بريطانيا ، ولم تصرح له الحكومة البريطانية بطبع قصته الرخوة ولا ينشرها في المملكة أو في المستعمرات (أى والله في المستعمرات) انطلق إلى فرنسا (بلد الحرية المطلقة) فطبع فيها كتابه ؛ وقد يعيد فيه نظره ثمة فزيده رخاوة ويشيع فيه من الفاحشة ما يضمن له به الذبوع والانتشار

نحن نشفق إذن من الانحدار إلى مزالق الأدب المنحط لأننا قراء إلى أدب القوة ، وليس في الدنيا ، في الوقت الحاضر ، أمة هي أفقر إلى أدب القوة من هذه الأمة التي ذاعت فيها قصة شهرزاد بأبطالها المنحطين جميعاً . وبهذا العبد الأسود الخسيس الوضع الذي لا تشيع منه شهرزاد ولا تريد أن تشيع منه . قالت قاتنة : « وأكاد أنزلن بك يا صاحبي إلى الكلام

في المذاهب الأدبية ، مبعدة عن القصر المسحور . فإذا كان عميد الأدب العربي قد قالها قولة على لسان شهرزاد ، هي ، ليعلم كيف تكون الكتابة عن شهرزاد ... و ... سيجد عندي علم عالم يعلم من أمر شهرزاد ... وقد جاء الوقت الذي بر فيه عميد الأدب العربي بما وعد ، فأصدر قصته البازعة « أحلام شهرزاد » نافع فيها عن ذكاء المرأة وحنن مقاصدها ، وجعل حديها على الإنسانية وعملها المتصل على إسعادها ... فإذا كان عميد الأدب العربي قد صنع هذا ... أفيليق أن يتخرص

الخراصون ويرجف المرجفون بأنه سرق من الأستاذ توفيق ؟ وماذا - لا در درم - سرق ؟ إن طه لم ينحدر بالمرأة إلى البؤرة التي انحدر بها صاحبه إليها ، بل هو قد ارتفع بها إلى أعلى عليين وهو في هذا كان مخلصاً لرأيه في المرأة حسن العقيدة في عفافها وسمرها ، وأنها مصدر السعادة في هذه الدنيا ... فهو في الصحيفة السادسة والستين من القصر المسحور لا يتمنى ملكاً وسلطاناً كما كان المتنبي يتمنى ملكاً وسلطاناً ، ولا يشتهي كما كان يشتهي ثروة وغنى ، إنما يتمنى لقاء شهرزاد والاستمتاع بحوارها القريب « وأى ملك يشبه الخضوع لها ويعدل الإذعان لأمرها ؟ وأى ثروة تشبه الشعور بأنه قريب منها ليس بينه وبين الذي يتمنى القلب والعقل إلا أن يتجه إليها فيسمع منها ويحسن قربها منه » وفي الصحيفة الثامنة والستين يقول هذه القولة المشجية : ثم أشار الفجر بأصبعه الوردية التي أربتها أنت يا سيدتي لضرير اليونان منذ ثلاثين قرناً ، فإذا الليل الجاثم يهزم ، وإذا الشمس تقبل فتبسط الضوء والحياة على كل شيء وفي كل نفس - ولكني أظل محروماً ضوء الشمس وحياتها لأنك أنت الشمس والحياة . وفي الصحيفة الثانية والأربعين بعد المائة يقول : ماذا ؟ تشكين في قوتك وتشكرين سلطانك وذكائك ، وأنت التي تمنح أمثالنا القوة والسلطان والذكاء ؟ وفي الصحيفة الثالثة بعد المائتين يقول على لسانها أيضاً : لا أنف هذا الموقف لأدافع عن نفسي ، فلت أعرف لأحد الحق في أن يتهمني بإثم مهما يكن ، وأنا الحرية كلها ، الحرية التي تشيع النشاط في العقول ، وتذيع الحياة في القلوب وتبعث الحرارة في المواطف والمشاعر والأهواء ...

هذا هو رأى طه في المرأة ، وهو رأيه فيها من قديم ، وهو رأيه الذي أذاع به في القصر المسحور كما أذاع به في أحلام شهرزاد ، وهو ضد ما أذاع به توفيق الحكيم في معظم كتبه ، بل في كل كتبه ، بل في كل ما كتب ...

قالت قاتنة : اذكر للناس يا صاحبي إذن أن مشروع أحلام شهرزاد مشروع قديم ، وأنه كان وعداً موعوداً في القصر المسحور ، وأنه قصد به إلى الدفاع عن المرأة والترفع بها عما وصمها به توفيق ... فإذا أرجف المرجفون بأن زبداء سرق من عمرو فإذا يملك المرجفون ما داموا لا أحلام لهم ، وما داموا يخلطون بين الفردوس وبين الجحيم ، وبين الملاك وبين الشيطان الرجيم .